# الكوفة في رحلتي ابن جبير وابن بطوطة
## ـ دراسة موازنة ـ

أ.م.د. صفاء عبد الله برهان الغرباوي
كلية العلوم الإسلامية بجامعة بغداد

**المقدمة:**

حظيت مدينة الكوفة الشريفة، بمنزلة مهمة في الوجدان الإسلامي؛ لما تمثله من نواة المدينة العربية في فجر الإسلام، وهو ما جعلها تحتل مراتب متقدمة، عند الحديث عن المدن الإسلامية، وقد زانها شرفا ورفعة، اختيارها عاصمة أمير المؤمنين علي عليه السلام، فكانت الحاضرة المدنية والعلمية والدينية وقتذاك.

لقد كثير الحديث عن مدينة الكوفة، في متون الفكر والتاريخ والسياسة والأدب، وفيما يتعلق بالشأن الأخير، نجد الشعراء نظموا القصائد المستقلة فيها، أو تلك التي جاءت الكوفة ضمن موضوعات القصائد المتنوعة. ولا ريب في تأثير الأدب في حياة الإنسان، ومنه الأدب النثري، بألوانه المتعددة، كالقصة والخطبة والرسائل والمناظرات والمقامات. وقد وردت الكوفة في كل تلك الألوان، بحسب الحاجة التي يمليها فكر الإنسان وذائقته، بما أثرى تلك المتون النثرية. والملفت للأنظار أن الألوان الأدبية، تفتقد طيفا مهما، هو أدب الرحلات، الذي لما يزل يصارع البقاء؛ لعدم عناية الباحثين بهذا اللون من الأدب، علاوة على عدم اهتمام بعض الرحالة، بتدوين رحالتهم بصيغة أدبية، تعنى بوصف الأماكن والأحداث والشخصيات. هذا الطيف الأدبي، قد أثرى النثر العربي كثيرا، ولاسيما من قبل الرحالة المغاربة والأندلسيين، الذين شغفوا بالرحلات إلى المشرق الإسلامي، وعمد ثلة قليلة منهم إلى تدوين رحلاتهم، وقد ازدانت تلك التدوينات باسلوب أدبي، ارتقى بما حدثوا عنه في الأماكن التي زاروها.

إن المتتبع لأثر أدب الرحلات، يدرك أن هذا الفن الجميل، قد أضاف للأدب العربي الكثير، ولاسيما فيما يتعلق بوصف المجتمعات البعيدة، بما يشغل الذائقة الشخصية للرحالة والمتلقي معا. وكان العراق من أهم البلاد المشرقية، التي رنت لها أبصار المغاربة والأندلسيين، فحاز على مدونات كثيرة، أظهرت ما كان عليه هذا البلد، فوصفوا أمكنته

واشخاصه وأحداثه، ولكن لم تحظ مدينة الكوفة، إلا على ذكر رحلتين اثنتين، هما ابن جبير الأندلسي (٥٧٨__٥٨١هـ)، وابن بطوطة المغربي (٧٢٥_ ٧٤٩هـ)، إزاء صمت الرحلات الأخرى؛ لأسباب متنوعة كعدم زيارة المدينة أصلا، أو عدم الالتفات إليها عند المرور بها، فكانوا كراما في مرورهم، أو أن ثمة مدونات تناولت الكوفة، ولكنها أمست مدونات مفقودة. ومن هنا حرص الباحث على ذكر ما جاء في هاتين الرحلتين، ولاسيما أنهما تمثلان عنوانان مهمان في أدب الرحلات، ولكي لا يندثر ذكر الكوفة في هذا الفن النثري، كما اندثر ما سواها، الذي قلّ الاعتناء به أصلا. فجاءت مفردات البحث معرفة به، ومن ثم التعريف بالرحلتين، وأهم المحطات التي وقف عندها الرحلتين، موازنا بينهما بحسب الأوصاف التي أورداها، وما رشح منها من نتائج توصل إليها البحث.

▪ مدخل .. أدبية الرحلة:

كان للرحلة أهمية واضحة في وجدان العرب؛ لما تمثله من تجديد في حياة الإنسان العربي، يشمل المكان الذي يحتضن الكثير، مما لم تألفه الذات المرتحلة. وهو ما يعني تغييرا مهما في أدبيات الإنسان، وارتقاء في نظرته إلى مفردات الحياة، وهذا ما درجت عليه الذات العربية، التي ألفت الترحال لأسباب متنوعة، والمؤكد أن ذلك منح العربي تميزا واضحا.

ومن الطبيعي أن منهجية الشخصية العربية، وما يعتريها من رؤى نقدية، تطورت بتطور حياة العرب العقائدية والفكرية والاجتماعية، بعد بزوغ الإسلام الذي شكل موقفه الخاص من الرحلة، بخاصة الهجرة النبوية الشريفة، التي غيرت مسار الإسلام، وانتقلت به نقلة واضحة، ومن هنا كان للارتحال أثره، الذي يؤثر في الإنسان والكان معا، وهو الشأن الذي يزود تلك الشخصية بالكثير من المعارف، التي ترتقي بصاحبها و تميز بها طوابعه.

كان للأوصاف التي رمقها المتلقي العربي، بحسب المنهجية التي أملت على الرحالة، أن يدوّن ما لم يألفه في بيئته، بما يشتمل على الارتقاء بالموصوفات، وعرضها في صورة أدبية، بما يمنحه الأسلوب الوصفي، الذي تحظ به مفردات الوصف، والذي يحدّ بأنه

(إسلوب إنشائي، يتناول الأشياء في مظهرها الحسي).[١]وهذا الاتساع في مفهوم الرحلة، ودخولها في حقل أدبي، يعتمد الوصف، أثر في تداخل المعاني، التي تزدان بها الموصوفات، ولاسيما عند الرحالة الأديب، الذي يعمل على وضع الرحلة في حيز صنعته، وهو ما يمكن كتابات الرحالة، من الرسوخ في جنس أدب الرحلة؛ بوصفه (مجموعة الآثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة، وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه من سلوك وأخلاق، وتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشاهدها).[٢]

ولهذا استحوذ أدب الرحلات، على ما يحمله هذا الجنس الأدبي، من تفسير الظواهر والأحداث والأماكن، بحسب موازينه الأدبية الخاصة، التي تحدث كثيرا من الانطباعات، والتي تحتكم إلى التعمق في فهم الأدبية من جهة، وتمكين ما تقع عليه العين الراحلة مما يحيط بها من مؤثرات المكان المزار من جهة أخرى، بما تفرض على الكاتب من استنفار الحواس الخمس؛ لأجل تقديم وصف أدبي يليق بكل ذلك، والمؤكد أن ذلك يكون في صياغة نثرية، تناظر الصياغة الشعرية، بما تسجله من ملاحظات، تعنى بخصائص أدب الرحلات، التي تؤكد بدورها جنسه الأدبي، وبهذا فإنه يفسر لنا حقيقة، وهي (اعتماد الكاتب في عرض أفكاره ومعانيه على الوضوح التام، والتحليل والبسط والإفاضة والالتزام في كثير من الأحيان بالدقة اللغوية، والاعتماد أحيانا على الأقيسة والبراهين العقلية والمنطقية؛ لذا كان النثر أدق من الشعر في عرض المعاني وتحليلها).[٣]

وهنا نجد أن الوصف يعتمد ما تقدم ذكره في النص؛ للتركيز على أوجه كثيرة، بما ترصده العين الأدبية. ومن أهمها ما يعمل في الوجدان من استقراء، يؤدي إلى تحكيم العقل أولا والعاطفة ثانيا، با عتماد الحوادثِ والظواهر المتفردة، التي تمثل مسيرة الحياة والإنسان معا؛ لترتبط أدبية الرحلة، بما تنماز به عن الاجناس الأدبية الأخرى، ما يعني (إن موضوع العلم الأدبي، يجب أن يكون دراسة الخصيصة النوعية للموضوعات الأدبية، التي تميزها عن كل مادة أخرى).[٤]

وبهذا فأن مسألة تصوير البيئة مكانا وإنسانا، ستخصص حيز الرحلة الأدبي، التي تراعي صيغة هذا الأدب وشكله، ومن ثم فإنها تخضع في تكوينها إلى المزاج الشخصي

للرحالة، التي تحتم الوقوف عند طبيعة هذا المزاج، وما ينتج عنه من مفردات، تسلك نفسها في عالم الرحالة الأدبي، الذي يؤثر إظهار الحوادث، وبيان الأمكنة و الظواهر المتعلقة بها، المتفرد عن المنظور المحلي؛ لأن (الاقتصار على التراث القومي وحده في عملية الإبداع، لا يغني عن التراث الإنساني).[٥]

إن المتأمل للصورة التي يرسمها أدب الرحلات، يلاحظ خضوعها لعناصر مهيمنة عليها، بخاصة التفاعل مع التراث المحلي للمجتمعات الأخرى، الذي تتجلى تأثيراتها على المستوى الثقافي، وتمثل وحدة في النشاط الإنساني، ومن ثم فهو يقدم صورة للنظير، دون أن يطرأ عليها أي تغيير؛ ليبتعد عن النمطية الراسخة، وليفسح المجال للرؤى والمنهجية المقابلة، أن تتجاوز النظرة الثابتة، التي تجسّد تراثا موقوفا على أبناء جلدته، وتبدو تعبيرا عن معرفة صالحة في زمانها ومكانها.

▪ الغرب الإسلامي و الرحلات:

شغف أبناء الغرب الإسلامي _ الذي يشمل المغرب والأندلس_ بالرحلة إلى المشرق، وقد كان الداعي لذلك، هو روحانية الشرق وسحره، الذي بان في هواجسهم الدينية والاجتماعية، علاوة على مزاج الرحلة العالي، الذي عرف عن المغاربة والأندلسيين، بحيث طغت الرحلات في تلك الاصقاع على ما سواها، وشكلت حضورا اجتماعيا، وانتجت مادة أدبية وثقافية، فضلا عن المادة الجمالية، التي تتضح أمام متلقي النصوص الرحلية، ويتعين معها قراءة النص، بما تحتمله من مشاهد ناطقة. ومن ثم عد منجزهم الرحلي نشاطا انسانيا، يحتوي صورة المجتمعات الأخرى، التي تشرق أبعادها الاجتماعية والثقافية والفكرية والاقتصادية، التي تحرك محاور كثيرة من تلك الرحلات. وهكذا انتهت الرحلة في مجملها إلى تشكيل أدبي ضمن منظومة إنسانية، يعتمد عناصر متنوعة، تستجيب لرغبة أبناء الغرب الإسلامي؛ ومن هنا فلا ريب أن (شكلت الرحلة بالنسبة لمسلمي الغرب الإسلامي، منذ فجر الدعوة الإسلامية، وإشراق شمسها على ربوع هذا الجانب من العالم الإسلامي، هاجسا دائم الحضور، ومطلبا قوي الإلحاح).[٦]

ولا ريب في أن أدب الرحلة، الذي انماز به أولئك المغاربة والأندلسيون، إنما احتكم إلى قضية الطبع بنحو كبير، وهو ما يساير حقيقة فن الرحلات، على احتسابه ضمن

الفنون الإنسانية، التي تنتظم ضمن قواعد مؤسسة، ونتائج مقننة، التي تعتمد مخزونها المتنوع؛ لتفهـم طبيعة الإنسان الانتقالية، ومن ثم لتخضـع تفسير الظاهرة الأدبية، وهو ما يمنح الطبع منزلته المهمة في العملية الإبداعية، وتبين حقيقته التي تتلخص في أن (الطبع هو عمود العملية الإبداعية، وهو الذي يتحكم في توجيه المبدع إلى نظم و نثر، وإليه يعود تفوقه في غرض أو مجموعة أغراض في إطار الصناعة والفن الواحد).[٧] وهكذا تتحدد معالم هذا الفن النثري، في مرحلة التأسيس والتكوين والنتاج، التي تجعله يمد جنسه إلى فن الأدب، مستندا إلى حراك إنساني في الرؤية والتجربة والنتاج، بما يجعله يتحرك في محورين أساسين، الأول فعل السفر، وما يكشف لهم من حركة المجتمعات المزارة، حيث أديانها وأساطيرها وعاداتها وتقاليدها وأحداثها. والآخر منجز الرحالة نفسه، الذي يصف ذلك في لغة، ترتقي بطبيعة تلك المشاهد والأحداث والأشخاص. وهو ما وقع لأبناء الغرب الإسلامي، الذين حرصوا على اكتشاف الشرق بحواضره ومعالمه ورموزه الإنسانية، وكان ذلك يمثل دافعا مهما لرحلة الكثيرين إليه، بمعنى أن (العامل الجغرافي الذي جعل الغرب الإسلامي في أقصى نقطة من خارطة العالم الإسلامي، حتى سمي في بعض الحوارات الطريفة بذيل الطاووس، كان دافعا قويا لأهله؛ للتواصل مع عواصم الثقافة العربية في المشرق).[٨]

كان العراق أحد أبرز البقاع المشرقية، التي تطاولت لها أعناق الرحالة المغاربة والأندلسيين؛ لما يحمله من خزين حضاري كبير، ولاسيما بعد شروق شمس الإسلام، وبناء مدينة الكوفة في سنة ١٦هـ، أول المدن الإسلامية التي بنيت خارج أرض النبوة، بعدما فتح المسلمون العراق، وتحريره من الإمبراطورية الساسانية، وازدادت أهمية الكوفة، بعد أن اتخذها أمير المؤمنين علي عليه السلام عاصمةً للخلافة الإسلامية في سنة ٣٥ هـ. لكن المفارقة الغريبة حقا، أن مدونات الرحالة المغاربة والأندلسيين، قد صمتت عن الحديث عن تلك المدينة، ولم تنبس ببنت شفة، حتى النصف الثاني من القرن السادس الهجري، بحيث سجلت أول زيارة لها من قبل رحالة أندلسي. هو بنيامين التطيلي (٥٦١_٥٦٩ هـ)[٩]، الذي كان معنيا بتدوين الجاليات اليهودية خارج الأندلس، فمر على ذكر الكوفة، وذكر أنه: (يقيم بها سبعة آلاف يهودي. وفيها قبر يكينة

ملك يهوذا، حوله كنيس يهودي، وفيها أيضا مسجد كبير للمسلمين، في رحبته مرقد الإمام علي بن أبي طالب، صهر نبيهم محمد، يحجونه للزيارة والتبرك).[١٠] والملاحظ أن غاية الوصف، تقدم تقريرا للوجود اليهودي بالكوفة عددا وآثارا، وذكر مسجد الكوفة المعظم فحسب. ولكنه وقع في لبس تاريخي، عندما نسب موضع مرقد أمير المؤمنين علي عليه السلام في المسجد، على حين أنه مكان اغتياله في المحراب.

▪ رحلتا ابن جبير و ابن بطوطة:

إن المتمعن في أدب الرحلات، يدرك أن هاتين الرحلتين، تعدان من أهم ما انتجه وجدان الغرب الإسلامي، فيما يخص هذا الحقل من الدراسات الأدبية. وقد أشار الكثير من الباحثين إلى أهميتهما على المستويات كافة،؛ لما تضمنتا من معلومات موثقة، وأسلوب محكم، وقصص مشوقة. بما أثرى أدب الرحلات، وجعل منهما، أساسا منظورا إليه من قبل الرحالة المغاربة والأندلسيين، وهم يدونون متونهم الرحلية. فقد وصف ابن عسكر المالقي، رحلةَ ابن جبير الأندلسي[١١]، بقوله: (له كتاب جمع فيه رحلته، وعجائب ما رأى وشاهد، وأتقن فيه غاية الاتقان).[١٢] ولا ريب في أن ابن جبير، كان على درجة عالية من الضبط والموضوعية والأمانة في النقل، أسوة بالرحالة المغاربة والأندلسيين، الذين كانوا من النخب الثقافية، و كان (حرصهم شديدا على تدوين وتوثيق دقائق رحلاتهم إى المشرق ومجرياتها).[١٣] أما رحلة ابن بطوطة المغربي[١٤]، فتعد من أشهر الرحلات التي قام بها الرحالة المسلمون، إن لم تكن أشهرها، ومما يميزه في تلك الرحلة أنه (لم يكن نقالة، اعتمد على كتب غيره، بل كان رحالة، انتظم محيط اسفاره عددا كبيرا من الأقطار).[١٥] ويكفي في علو شانها، ما قرره الدكتور عبد الهادي التازي، الذي كان أهم من اعتنى بها، وحققها تحقيقا رصينا، قال: (إن رحلة ابن بطوطة ستبقى في حاجة أكثر إلى استجلاء غوامضها والكشف عن عن المزيد من أسرارها وفوائدها).[١٦] ولا مشاحة في أن كلمة التازي، تعطي لرحلة ابن بطوطة أعمارا أدبية، تتجاوز حدود الزمان والمكان، بحسب ما أودعها من معلومات متنوعة، ذات فوائد طريفة على الوجدان المحلي عامة.

▪ مدينة الكوفة:

استحوذت مدينة الكوفة على أهمية واضحة، ضمن اهتمامات المتون الرحلية؛ لما تمثله من الأنموذج العمراني الأول والرصين، الذي شكّل أساس المفهوم الإسلامي للحواضر الإسلامية، وكان له أن يبلغ مدى واسعا في التفكير الإنساني؛ لما يحرزه من أهمية اجتماعية؛ إذ العمق الروحي للجماعة المسلمة، سواء أكانت محلية أم زائرة، التي تنظر إلى الكوفة، بوصفها تلك المدينة العربية الأولى، التي تمصرت في ظل الإسلام، واتخذت أول عاصمة بعد المدينة المنورة. وهو ما يخضع الوجدان المسلم للإرادة العلوية الشريفة، التي حققت للمسلمين فضاء روحيا وماديا، يقوم على أسس من المبادئ، التي تمكن من الانخراط الفعّال في المشروع العلوي للدولة الإسلامية.

وقد أدركت النصوص الرحلية تلك الغاية، وبانت من مفردات الرحالتين، الصفةُ الحقيقية التي نشأت عليها الكوفة، وإن تغيرت أحوالها العمرانية إلى حد كبير، ولاسيما في زمن الرحلتين، ولكن ذلك لم يمنع من تصوير حقيقة تلك المدينة في كتاباتهم، بما أشعر المتلقي بمسايرتها للذائقة الأدبية، بحسب الخطاب الذي تبتغيه الذات الراحلة، ومن ها كان (على الناثر أن يحيط بالأحداث التاريخية، والاجتماعية، وأخبار العرب، حتى يحسن تصويرها، ولا يتجاوز حقائقها المألوفة).[١٧]

لقد أظهر ابن جبير الأندلسي، الحال التي غلبت على الكوفة، بما وقعت عليه عيناه، وقد بانت في ثقافة الغزو، التي تغلبت على ثقافة التحضر؛ نتيجة ما قامت به قبيلة خفاجة العربية حينها، وهو ما يشكل الأسلوب البدائي، الذي شمل شعوبا وأجناسا في حضارات قديمة، عندما لا ينظر إلى الحاضرة السياسية والعلمية كالكوفة بعين تفوقها، بل من عين نزعة التسلط والحصول على المغانم؛ نتيجة تردي أحوال المسلمين في أيام الاحتلال الاجنبي، حيث تعاقب احتلال البويهيين والسلاجقة، الذين جثموا على صدر العراقيين وقتذاك، ولم يكن تعنيهم عمران البلاد والعباد، قال واصفا الكوفة: (هي مدينة كبيرة عتيقة، قد استولى الخراب على أكثرها، ومن أسباب خرابها، قبيلة خفاجة المجاورة لها، فهي لا تزال تضر بها، وكفاك بتعاقب الأيام والليالي محييا ومفنيا، بناء هذه

المدينة بالآجر خاصة، ولا سور لها. والجامع العتيق، آخرها مما يلي شرقي البلد، ولا عمارة تتصل من جهة الشرق).[١٨]

يبدو أن الكوفة هنا كانت تمر بحال عسيرة، بل نرمق من وصف ابن جبير، أنه لا يمكنه أن يعطيها الصفة العلمية، التي عرفت عنها؛ بوصفها مدرسة إشعاع للقراءآت القرآنية والمدارس النحوية؛ والسبب تعاقب الأزمان التي ابتعدت عن تلك المرحلة الزاهرة، علاوة على تعرب القبائل المحيطة بها، ولاسيما خفاجة، ما جعلها تجافي التفوق على الأجناس والبيئات الاخرى؛ لأن الصفة البدائية التي أدركتها عين ابن جبير، قابلت تحضر ما سواها وقتذاك، ولاسيما بلاد الأندلس موطن ابن جبير. وهذه البدائية بتاريخ معين، بدليل أن الحال استمرت إلى زمن مرور ابن بطوطة بالمدينة؛ إذ نجد أن الحال استمر، لدرجة أن الوصف جاء مقاربا كثيرا في جزء من مفردات ابن بطوطة، قال: (مدينة الكوفة، وهي إحدى أمهات البلاد العراقية، المتميزة فيها بفضل المزية، مثوى الصحابة والتابعين، ومنزل العلماء والصالحين، وحضرة علي بن ابي طالب أمير المؤمنين، إلا أن الخراب قد استولى عليها؛ بسبب العدوان التي امتدت إليها، وفسادها من عرب خفاجة، المجاورين لها، فإنهم يقطعون طريقها، ولاسور عليها، وبناؤها بالآجر، وأسواقها حسان، وأكثر ما يباع فيها التمر والسمك).[١٩] وواضح أنه ينماز من وصف ابن جبير، بالانفتاح على حقيقة الكوفة، عندما عرف بماضيها التليد في النصف الأول من وصفه، حيث (الحاضرة العراقية، واحتضان السلف الصالح، ودار العلم، والعاصمة العلوية). ومن هنا نلحظ أن توصيفاته المقتضبة، كانت تكثف دلالاتها التي يتجاوز فيها مفهوم التفكير، المكانَ المتحوّل عبر الزمان، وهو في الوقت ذاته، يسير في صيرورة بيّنة، ويبرز معها صنع الحدث، على وفق ثنائية (الثابت / المتحوّل)، وهو ما يعطي للكوفة العلوية منزلتها الروحية، التي أثرت الحضارة الإسلامية. وهذا الشأن يؤكد أن ابن بطوطة، كان يساير طبيعة الذات الإنسانية، التي تسعى به إلى البحث عن هوية الذات المفقودة، وما تضم في ثناياها من ميادين متعددة، تلج إلى الألق العقلي. وبعدها نراه يردد كلمات الخراب، التي ساقها ابن جبير؛ مشخصا أثر قبيلة خفاجة في خرابها، وهو قطع الطريق أمام الناس، ما يعني تعرّب هؤلاء القوم وقتذاك، بما فرضته

ظروف الاحتلال الاجنبي للبلاد، ولكنه ينفرد بوصف داخلي لمدينة الكوفة، حيث البعد التجاري لها، التي تقف به موقفا واضحا إزاء الخمول الفكري حينذاك، وهو ما يضع المتلقي، إزاء ما يفتح كل ما هو ضيق؛ ليؤكد أن الحياة مزدهرة؛ بسبب تلك الأسواق الحسان.

▪ جامع الكوفة:

مثّل جامع الكوفة المعظم، صورة مهمة من صور النشاط الإنساني الكبير؛ بوصفه المؤسسة العلمية والقضائية؛ لينطلق منها المنجز العلوي، ولاسيما في الحواضر والبوادي الكبرى، وما تعمله من أسباب التحضر؛ إذ نقل ذلك المنجز الكبير، الكوفة من معسكر لجيوش الفتح إلى حاضرة الدولة الإسلامية، بما جعلها تغترب عن المدن الإسلامية زمنذاك. وعلى وفق ذلك كان لجامع الكوفة، منزلته الروحية والحضارية في وجدان المسلمين. وهو ما أدركته العيون الزائرة له، وبينوا ذلك بمفرداتهم الوصفية، التي لا تظهر معها طبيعة الوصف، العاملة في الشخصية الإنسانية، حيث عمران ذلك المسجد المادي والروحي، وما يفرزه من نشاط إنساني، يتداخل في ذهنية المتلقي، ويعمل في بقية العناصر المكونة للنتاج الإنساني. ويسرد أحوال البلاد والعباد المشرقية، التي تحتضن أحداثا ومعالما، توطّئ مفاهيم تاريخية قائمة الذات، ومتمكنة من النفس البشرية، التي تحرز مكانتها في الحيز المقابل، بما يربط علاقة الإنسان بالمكان؛ فمثلت الرحلة (طريقا للمجد، وشكلت سبيلا للشهرة والتألق في مجتمع ظلت أنظاره وقلوبه وأفئدته، مرتبطة بالمشرق كرمز للصفاء والطهارة والنقاء، وكعلامة للجذور والأصول، وكمنبع للحقيقة والشريعة).[٢٠]

ومهما يكن من شان يذكر، فقد أفصحت مفردات الرحلتين، عن إعجاب كبير بذلك المسجد الشريف، الذي بدا معهما تأثرهما في كثير من أوصافهما؛ بسبب المرحلة المتقدمة لتفوق العراقيين الحضاري، ولاسيما عند بزوغ الاسلام عليهم، وازدهارها في بلاد الرافدين، الذي انجلى واضحا في العلوم والعمران، فجعل ما سواها يستشعر التبعية لها، والشعور بالضآلة أمام المنجز العراقي، فأورد ابن جبير وصف ذلك المسجد المعظم بنحو وافٍ، يمكن أن نلتقط منه ما يعين على فهم ذلك الوصف بنحو متتابع، بحسب

الموضوعات التي أوردها، قال: (هو جامع كبير، في الجانب القبلي منه. خمسة أبلطة، وفي سائر الجوانب بلاطان، وهذه البلاطات على أعمدة من السواري الموضوعة من صم الحجارة، المنحوتة قطعة على قطعة، مفرغة بالرصاص، ولا قسي عليها، على الصفة التي ذكرناها في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي في نهاية الطول، متصلة بسقف المسجد، فتحار العيون في تفاوت ارتفاعها، فما أرى في الأرض مسجدا، أطول أعمدة منه، ولا أعلى سقفا).[٢١]

الوصف هنا يدقق في بناء ذلك الجامع، كان يسجل الرصيد العمراني، الذي بلغه بخلاف حال الكوفة؛ إذ لم يصله خراب الأعراب والأحقاب، ومن هنا احتل منزلة مرموقة، شكل بها المعلم الأبرز للكوفة، بحسب طريقة بنائه الهندسية المتفردة، التي بينت التراث العمراني للعراقيين، ومنها البلاطات التي أدهشت عين ابن جبير، ولا ريب فهم بناة الجنائن المعلقة، وزقورة أور، وقصور الحيرة المجاورة للكوفة، وغيرها من المعالم العمرانية العراقية. وقد منحت ابن جبير، مساحة من التأملات الذاتية لهذا المكان، بما خالف المألوف المختزن في ذهنهم، ومن ثم فإن محصلة الوصف المكاني هذا، يسعى إلى الخروج بتلك المشاهد من تجريدتها؛ لتعرض إلى طول الباع العراقي، الذي أنشأ هذا المسجد الشريف، وأكدت أنه تنتمي إلى ما هو أعم وأشمل، حيث أحداث وشخصيات و أمكنة وأزمنة؛ ليوجه بتلك الأوصاف المجتمعات المسلمة إلى صفة هذا المسجد، ولاسيما عند مقارنته مع المسجد النبوي الشريف، ما يعني أنه كان يخاطب الضمير الجمعي؛ لأن (الذي لا شك فيه، أن الأديب لا يكتب لنفسه، وإنما يكتب لمجتمعه، وكل ما يقال عن فرديته المطلقة غير صحيح).[٢٢] وهو أمر لا يختلف عليه اثنان، ولاسيما عندما يتعلق الأمر بزيارة بلاد بعيدة، تختلف في تمدنها وتحضرها وبداوتها، بما يشكل رغبة ملحة للمسلمين في الأصقاع الغربية، للوقوف على معالم الإسلام الأولى بالمشرق.

في الوقت الذي نجد ابن بطوطة، قد وصف ذلك المسجد بنحو مقتضب، لم يرتق إلى وصف ابن جبير، ولم يرد ذلك المنجز العمراني إلى أصوله الحضارية، علاوة على مقارنته بالمسجد النبوي وطول أعمدته، التي تؤكد استقلاله، وما تضمنت من مفردات

تتداخل وظيفيا في خدمة المتلقي. قال ابن بطوطة: (جامعها الأعظم جامع كبير شريف، بلاطاته سبعة، قائمة على سواري حجارة ضخمة منحوتة، قد صنعت قطعا، ووضع بعضها على بعض، وأفرغت بالرصاص، وهي مفرطة الطول).[٢٣] فلم يكن هذا الوصف، سوى ترديد مبتسر المعنى والألفاظ، وقد كان عيالا على وصف ابن جبير، ولم يزد عليه إلا بنعت الجامع بـ(الأعظم والشريف)، وكأنه اكتفى بما ورد في وصف ابن جبير، الذي يعني معه أن الذائقة الأندلسية، كانت تعتمد مساحة التأملات، التي لم يديمها ابن بطوطة، ما يؤشر حقيقة أن الأماكن المنظور إليها، تكون ذات أبعاد حدثية، وهو ما لم يرجح وصف ابن جبير؛ لما أروده من وصف مكثف وافٍ لحال ذلك المسجد.

▪ الآثار النبوية:

احتوى جامع الكوفة الكثير من الآثار النبوية القديمة، التي كانت تغذي شريان الحياة الروحية، ولم يكن بوسع أي كان، أن يحجب البصر عنها، وهو ما يجلي أهمية أخرى لهذا الجامع الشريف، بما يمكنه أن يكون الأوفر حظا، بعد المسجد النبوي الشريف، الذي احتوى معالم النبوة المحمدية ومدفنها، فكان جامع الكوفة يضم معالم الخلافة العلوية، مسبوقة بآثار الأنبياء الأولين، وكان الكوفيون حريصين على تلك المشاهد الشريفة، و غير مستعدين للتفريط بكينوتها الروحية، فحافظوا على ذلك التراث الجليل، بما تنماز به هويتهم التاريخية والثقافية. فكان أن شخصت تلك المعالم الجليلة، التي توارثوا نسبتها إلى أصحابها جيلا عن جيل، وبما أكد معه النزعة الشخصية في إكبار تلك البقاع المباركة، وفي الوقت نفسه أثر ذلك في أدبيات الرحالة الزائرين، التي تعاملت على وفق المقابل الذوق الشخصي لها، والانطباع المعرفي للكوفيين، الذي يعني عدم الانسياق، خلف النوازع المحلية لهم. ويبدو أن تلك الرؤية المرتحلة، كانت تمثل تنوعا في معالجة الموروث الإنساني، وكل ذلك قد أدى إلى (جعل المدينة الإسلامية تمور بالحركة والحياة؛ لأنها استقطبت الفعاليات الإنسانية على الصعيد الاجتماعي والديني والفكري).[٢٤]

لقد كان هذا الاتجاه الحركي، ذا تأثير حضاري مهم، يعيد لآثار الأنبياء كينونتها، ويغرس التصورات الخاصة بمعتقدات الشعوب، منذ أمد بعيد في الأبعاد والرؤى، سواء اتفقت مع حقيقة نسبة الموروث أم لا، قال ابن جبير: (في الزاوية من آخر هذا البلاط القبلي، المتصل بآخر البلاط الغربي، شبيه مسجد صغير، محلق عليه أيضا بأعواد الساج، هو موضع فار التنور الذي كان آية لنوح عليه السلام، وفي ظهره، خارج المسجد، بيته الذي كان فيه، وفي ظهره بيت آخر، يقال: إنه كان متعبد إدريس صلى الله عليه وسلم، ويتصل بهما فضاء متصل بالجدار القبلي من المسجد، يقال: إنه منشأ السفينة).[٢٥] وكما يلحظ فإن ابن جبير، يبدو هنا أنه يقدم وصفا مقتضبا عن تلك الأمكنة المشرفة، التي تخص معالم نبوية مهمة، وهي (موضع فار التنور، وبيت النبي نوح عليه السلام، ومتعبد إبراهيم، ومنشا سفينة نوح)، وهي آثار مهمة، ترتبط بعضها ببعضها الآخر زمنا وحدثا، بما يجاري وجدان القارئ والجمهور وحركة التاريخ. ولكنه أخضع المعلمين الآخيرين في هذا النص، إلى عملية النقد الموضوعي، عندما لم يؤكد نسبتها، بقوله: (يقال)، وهو بذلك عزله عن كل ما هو خارجه، دون أن يمس بحقيقة تلك المشاهد الجليلة؛ لأنه ناقل ليس أكثر، وليس له أن يحكم على حقيقة نسبة هذا المعالم إلى أصحابها، وبذلك فقد احترز بنفسه، عن النفي والإثبات، التي تسهم في حركة البناء الداخلي للنص نفسه، وقد وضح ذلك بحمله أقوال الكوفيين أنفسهم، التي تقيد مقالته إزاء المتلقي، قال: (هذه الآثار الكريمة، تلقيناها من ألسنة شيوخ البلد، فأثبتناها حسبما نقلوها إلينا، والله أعلم بصحة ذلك كله).[٢٦] وعلى وفق تلك الحال، فقد احترز ابن جبير بمفرداته، وقد تعامل مع ما تلقاه من شيوخ الكوفة بحيادية، تصف الأشياء كما هي، وتبتعد عن تقييمها؛ لأنها ستجعله غريبا عن مجتمع إسلامي عريق، فما كان منه أن يتجنبها؛ لأنه أدرك أن (الغريب هنا من يجتنب المجتمع، وما يشيع به من معتقدات، وينفصل عن العامة والناس).[٢٧] بخلاف ابن بطوطة، الذي لم يسمح لذاته، أن يتفاعل مع معتقدات أهل الكوفة، أو يسير في سبيل سلفه ابن جبير، الذي يتمكن من قراءة حركة التاريخ، ما جعله منغلقا في تفكيره، كما بان في قوله: (في الزاوية من آخر هذا البلاط، مسجد صغير، محلّق عليه أيضا بأعواد الساج، يذكر أنه الموضع الذي فار منه

التنور، حين طوفان نوح عليه السلام، وفي ظهره خارج المسجد، بيت يزعمون أنه بيت نوح عليه السلام، وإزاءه بيت، يزعمون أنه متعبد إدريس عليه السلام، ويتصل بذلك فضاء، متصل بالجدار القبلي من المسجد، يقال: إنه موضع إنشاء سفينة نوح عليه السلام).[٢٨] كما يدرك من عبارات التقليل والزعم، التي ساقها في مشاهداته، فإنه لم يكن مقتنعا بنسبة تلك الآثار الكريمة، و قد كاد أن يكون وصفه ترديدا لسلفه ابن جبير، لولا أنه انحرف عن خطه بتلك المعالجة الشخصية، بما يظهر معه توجه مفردات الوصف، إلى ما يتضمنه المسجد الشريف، بما يمكن المتلقي من معرفة ما يسرده، وتحجب ابن بطوطة أن يكون مرسلا لأوصاف جديدة، بعد الرحلة السابقة، بما يحول الرحلتين إلى منجزين متقاربين، يحتويهما الوصف نفسه، الذي لا يقدم وظيفة نقل الأفكار، بل لا يتجاوز أن يكون وسيلة وغاية، تغرس وجودها الذاتي. مع الفارق في الترجيح وما زاد عليه ابن بطوطة من وصف: (بهذا المسجد آثار كريمة، فمنها بيت إزاء المحراب عن يمين مستقبل القبلة، يقال: إن الخليل، صلوات الله عليه، كان له مصلى بذلك الموضع).[٢٩]
إن طبيعة التناول الوصفي، الذي ساقه كل من ابن جبير وابن بطوطة، فيما يتعلق بآثار النبوة المذكورة، كانت تتناول المرحلة الزمنية التي امتدت قبلهما، فضلا عما بعدهما زمنيا، وهي مفردات لا تتعدى ما هو داخل في المسجد، التي يمكنهما من النظر فيها، وما يظهر معها استقلالها الزمكاني أيضا، من دون بيان مدى حضورها في وجدان المجتمع الكوفي خاصة، وهي ما هي من حيث وجودها في ذلك المجتمع؛ بوصفه عنصرا مهما في بنيته. ولاسيما ممن أدركوا تلك الآثار، التي لا يمكن ان ينظر إليها بنحو معزول؛ نتيجة تلاشي أغلب تلك الآثار في الأزمان اللاحقة، وهو ما ينشد حيز العلاقة بين داخل النص وخارجه، وقد ذكر السيد حسين البراقي، معلقا على كلام ابن بطوطة: (ويظهر من قوله في ظهره خارج المسجد بيت يزعمون أنه بيت نوح، أن بيت نوح ملاصق للزاوية الغربية، ويتصل بالباب الذي ذكرنا أنه مقام نوح، الذي بجنب المنبر، وهو الباب الذي يدخل منه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إلى المسجد. وأما متعبد إدريس فليس له اليوم عين ولا أثر، وأما الفضاء الذي ذكره المتصل بالجدار القبلي من المسجد الذي

نجرت فيه السفينة، فهو الفضاء الموجود ما بين بيت أمير المؤمنين، وبيت نوح الذي هو ملاصق للحائط القبلي).[٣٠]

ولا شك في أن ما قدمه ابن بطوطة وعقب عليه السيد البراقي، يمثل أثر الزمان في عفاء المكان؛ نتيجة التعاقب على الآثار القديمة إلى حد كبير. بما يؤكد أن السطوة الزمانية، تفعل فعلتها في الغربة المكانية، وعلى وفق ذلك فقد بين السيد البراقي، بعد قرون خمسة، مثلت المسافة الزمنية التي دثرت تلك المعالم النبوية، وقد بين السيد البراقي ذلك، بعدما شرح قسم من مفردات ابن بطوطة، ولاسيما فيما يخص المعالم العلوية الشريفة، التي لم تسعف ابن بطوطة في التنبه إليها، على ما للرجل من ملكة عالية في تحسس الأمكنة والسؤال عنها، وليس ذلك بغريب عنه، فهو لم يستطع فهم سر تلك المعالم النبوية، التي تجاورت في حاضرة الخلافة العلوية، وسبقتها بقرون طوال، ومن ثم فإنه لم يستطع أن يحقق هدف الرحالة من رحلته، عندما يمر ببعض الأماكن المهمة، التي تذهب إلى أن الرحالة في المدونات الرحلية، قد (اتخذ من الصورة المكانية وسيلة لخلق التوافق النفسي الطبيعي).[٣١] لتؤكد أن ثقلها الروحي، يختبيء في تلك الآثار المؤصلة، التي مهدّت نفسها لتكون موئلا، تأسست عليه حاضرة أمير المؤمنين علي عليه السلام.

- الآثار العلوية:

وكما بينا في المفردات السابقة، فقد كان للارتباط الكبير والمتعاقب، بين المعالم النبوية، على مختلف المشارب من زمن سيدنا نوح إلى سيدنا إبراهيم عليهما السلام، ارتباط بيّن في الوجود المقصود في الكوفة، وإن لم تسم بهذا الاسم، وقد أدركت تلك الأرض المباركة، نزول امير المؤمنين علي عليه السلام، واختياره لها كحاضرة للخلافة الإسلامية بعد المدينة المنورة. من هنا كان للوجود العلوي المبارك أهميته، بعد تحويل تلك المدنية الإسلامية المحدثة بصفتها العسكرية، إلى حاضرة متمدنة، لفت أنظار الباحثين في شؤون العمران الحضاري، فعدت أنموذجا للمدينة الإسلامية، التي ألفت معالم عصرية فاقت ما سواها، حتى في المسجد الذي تحول إلى دار للخلافة العلوية، ومؤسسة مهمة من مؤسسات الحكم، التي تدير شؤون الرعية عامة، وأنف من المقام في قصر الإمارة؛ زهدا

وورعا وتيسيرا للقاء الناس، وقد كتب له حسن الخاتمة في محراب ذاك المسجد، فأمسى معلما للشهادة والإجلال، ومن هنا كان مسجد الكوفة، يتجاوز حيزه المكاني؛ ليشكل فضاءً وهو (أوسع من المكان، وهو مجموعة الأمكنة التي تقوم عليها سيرورة الحكي).[٣٢]

وقد أوردت رحلة ابن جبير، وصفَ ذلك المكان الشريف، بنحو موجز: (على مقربة منه، مما يلي الجانب الأيمن من القبلة، محراب محلق عليه بأعواد الساج، مرتفع عن صحن البلاط، كأنه مسجد صغير، وهي محراب امير المؤمنين علي، رضي الله عنه، وفي ذلك الموضع، ضربه الشقي اللعين عبد الرحمن بن ملجم بالسيف، فالناس يصلون فيه، باكين داعين).[٣٣] كذلك كان لابن جبير، أن يمر على البيت الشريف، الذي غسل فيه أمير المؤمنين علي عليه السلام، فقال: (مع آخر هذا الفضاء دار علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، والبيت الذي غسل فيه. ويتصل به بيت، يقال: إنه كان بيت ابنة نوح صلى الله عليه وسلم).[٣٤]

هنا نجد ابن جبير الأندلسي، معطيا توصيفا دقيقا لمحراب أمير المؤمنين علي عليه السلام. وواضح أن ثمة أعمدة من ساج، كانت عمادة ذلك المحراب، ويبدو أن صفة هذا المحراب، تنطبق على محراب مسجد الكوفة، لا المحراب المعروف حاليا، الذي ضُرب فيه أمير المؤمنين علي عليه السلام؛ لأن هذه الأوصاف لا تنطبق على المحراب المشهور، الذي لم يبلغ ارتفاعه كما أورده ابن جبير، فضلا عما ورد في تحديد موقعه، وهي إشارة مهمة لحقيقة المحراب المنسوب، بما يخالف الموروث المشهور عن هذا المحراب، الذي لم يتم تجاوزه؛ بسبب سلطته التي تؤكد بنحو مبين أن (الموروث أشمل من التراث؛ لأنه يشتمل على كل ما أنجزه الأسلاف، وكل ما فكروا به، منه ما بقي، وما زال يملك مفاعيل مؤثرة فينا _وهو التراث_ ومنه ما أدى دورا في مرحلة من المراحل تم تجاوزه بعد ذلك).[٣٥] وهنا نجد ابن جبير، يبين الطقوس العبادية التي يؤديها المسلمون هناك، وقد كان ناقلا أمينا لما رآه، من دون تدخل في معتقداتهم. والحال نفسها عندما يذكر المكان الذي غسل فيه امير المؤمنين علي عليه السلام، واتصاله ببيت ابنة نوح عليه السلام، موردا إياه في صيغة تضعيف (يقال)، من دون أن يعلق على حقيقة نسبته، نفيا أو إثباتا، بحسب المنهج الذي اختطه من بيان الوصف دون ترجيح.

أما ابن بطوطة المغربي، فقد كان مرددا لمفردات ابن جبير، مع الاقتصاد بها إلى حد معين، وقد ختم حديثه، بما يتعلق ببيت ابنة نوح عليه السلام، بإيكال العلم لله تعالى، قائلا:(على مقربة منه، محراب محلّق عليه أعواد الساج، مرتفع، وهو محراب علي بن أبي طالب، رضي الله عنه. وهنالك ضربه الشقي ابن ملجم، والناس يقصدون الصلاة به).[٣٦] وقال: (في آخر هذا الفضاء دار علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، والبيت الذي غسل فيه، ويتصل به بيت، يقال أيضا: إنه بيت نوح عليه السلام، والله أعلم بصحة ذلك كله).[٣٧] وواقع الوصف الذي ساقه ابن بطوطة، يعتمد الواقع التاريخي وحسب، الذي يصف الأمكنة، والاحتراز من التدخل في حقائقها، على ما له من رؤية خاصة، لا تحقق أو تتابع حقيقة تلك الآثار الجلية، ولاسيما أن الرجل بعيد عن تلك البيئة ثقافيا، ما يجعله يرصف المفردات، كما ألفتها العين من دون تحريك لذائقته الأدبية، التي تمنح المكان ثقلة وتأثيره في الوجدان الإنساني؛ لأن مغزاه العميق (يقتضي أشكالا، ويتضمن معاني عديدة، بل إنه قد يكون، في بعض الأحيان، الهدف من وجود العمل كله).[٣٨] فكان التعريف بهذه الأمكنة الشريفة، التي احتواها ذلك المسجد، يشكل الخصيصة المهمة في النصوص، من حيث كشفها لموقع تلك الأمكنة.

▪ ضريح مسلم بن عقيل:

شكل ضريح الشهيد مسلم بن عقيل، رضوان الله عليه، أحد أهم معالم مسجد الكوفة المعظم، وقد بلغت شهرة ذلك الضريح الشريف حداً، جعلته أحيانا يتفوق على شهرة المسجد المعظم، وبذلك أظهر تفوقا على ثقافة المكان الأصلية؛ لذلك حاز الضريح التفضيل الإيجابي، ومختزلا لوعي الزائر للكوفة عامة، بل لا نبالغ إن قلنا، إنه مثل (مكانا للوعي تختزل عبره الوعي بالأمكنة كلها، ابتداء من الأمكنة الصغرى، والأمكنة الكبرى المألوفة).[٣٩] ولا يعني ذلك أن الضريح الشريف، قد تقدم على المعالم الأخرى، بصورة تجع تلك الأماكن ثانوية الحضور. بل إن الوجدان الشعبي، قد وقف هذا الموقف؛ نتيجة ما ضم من جسد شريف لسفير الإمام الحسين عليه السلام، الذي سجل ذاته كأول شهيد في النهضة الحسينية الخالدة، بعد التضحيات الكبيرة والمواقف الشجاعة، التي أبداها في حاضرة الكوفة، وهو وحيد غريب مخذول مقتول. ولم يحضر دفن جثمانه

الشريف أحد، فكان مشهده الشريف يعلن عن ظلامة كبيرة للهاشميين، دغدغت المشاعر الإنسانية، التي تتعاطف مع المظلوم، ومن هنا جاء دور أدب الرحلات؛ لكي يسجل (مشاعر الأمة وآرائها، ومن هذه الآراء، ما يتعلّق بصلات هذه الأمة بغيرها، وبالصور التي تكونها لنفسها). [٤٠]

ولم يفت ابن جبير الأندلسي، أن يمر بذلك الضريح؛ تبركا به، وإتماما لزيارة معالم المسجد الشريف، قال واصفا (في الجهة الشرقية من الجامع، بيت صغير، يصعد إليه، فيه قبر مسلم بن عقيل، رضي الله عنه، وفي جوفي الجامع على بعد منه يسير، سقاية كبيرة من ماء الفرات، فيها ثلاثة أحواض كبار).[٤١] ومن الواضح أن هذه اللقطة، التي يقدمها ابن جبير لضريح مسلم بن عقيل، رضوان الله عليه، والسقاية التي تتوسط المسجد الشريف، كانت تمثل مرحلة زمكانية، حافظت على وجودها إلى وقتنا الحاضر، على الرغم من وصف غرفة الضريح بالبيت الصغير، التي مثلت مرحلة الضمور والتبعية للمسجد الشريف. ولم يكن هناك فرق كبير بين هذا الضريح، وبقية المعالم التي تجعل أي منهم، يتفوق على الآخر، ولكن الملفت للنظر إنه لم يشر إلى بقية المشاهد الشريفة هناك، ولعل تقدّم شخصية الشهيد مسلم بن عقيل، رضوان الله عليه، قد غطت على الشخصيات الأخرى، كالمختار المجاور له، أو هانئ بن عروة المقابل له، والمستشهد معه في اليوم نفسه رضوان الله عليهم. في الوقت الذي وصف الأحواض الثلاثة الكبيرة، ومصدر مياهها، التي لم يتبق منها سوى اثنين، ولكن مع هذا فقد بينت مفرداته المكانية، أن (المكان قد يعبر بمجرد ذكره عما يعجز النص الأدبي الإبانة عنه، أو التعبير عن دلائليته).[٤٢] وكان من نتائج هذه الرؤية الثقافية، أن لحقت الرحلة مفاهيم جديدة، تتمثل في وصف المكان الآخر والبيئات الأخرى، التي تعنى بدراسة كل ما هو طارئ وطريف، لم تألفه الذات الراحلة، ومن بعدها الذات المتلقية، بما يشكل معه حركية اجتماعية وحضارية، تفي بحاجة الإنسان إلى الرحلة، من حب المعرفة والانطلاق في فضاءات مكانية جديدة، ومنها ذواتنا التي تتعرف على أوصاف عتيدة في وقتها، بما لم تدركه أبصارنا الآن. على حين نجد أن ابن بطوطة، قد ذكر مرقدين شريفين، لاثنتين من بنات الإمام الحسين عليه السلام، قال: (في الجهة الشرقية من الجامع، بيت مرتفع يصعد إليه،

فيه قبر مسلم بن عقيل بن أبي طالب، رضي الله عنه، وبمقربة منه خارج المسجد، قبر عاتكة، وسكينة بنتي الحسين عليه السلام).[٤٣] ويمكن أن نلمس من هذا الوصف المكثف، أن ابن بطوطة المغربي، أدرك عمارة ضريح مسلم بن عقيل، رضوان الله عليه، ولكنه لم يذكر ما يخص الأحواض التي بينها سلفه ابن جبير، ولعل ذلك غفلة منه. في الوقت الذي حدد مرقد السيدتين الجليلتين عاتكة وسكينة، الذي لم يعرف لهما أي أثر في وقتنا هذا، بل حتى لم يذكر أنهما هناك، والمعروف هناك مشهد خديجة ابنة أمير المؤمنين علي عليه السلام.

▪ الفرات والقصر:

كان نهر الفرات بالكوفة، يمثل مصدرا لحياة تلك المدينة، بما لم يمنحه الأعراب الذين خربوا حياة فيها، بما لبّى حاجات نفسية و اجتماعية للشعب الأجنبي، دون أن تلبي حاجات المجتمع وقتذاك، وقد جاءت أوصاف الرحالتين، بنحو واقعي يصف الأشياء كما هي، وهو الشأن الذي نقع عليه في أدب الرحلات، التي تعنى بـ(الوصف الدقيق، والتصوير الأمين والنقل الصادق، بدافع تحري الدقة تحريا علميا موضوعيا، وهي عندئذ تتجلى بالابتعاد عن الهوى والميل والغرض الذاتي).[٤٤]وبناء على تلك الحقيقة الأدبية، فإن الرحالة يكون أمام عمل كبير، يقتضي منه عدم تحكيم عواطفه الشخصية، التي قد تعارض هذه الرؤية أو تلك، أو تتلاعب بالحقائق التي تعنى بالأمكنة والطقوس، ما يمنح أدب الرحلات الموضوعية فيما يصفه، الذي يشكل أهمية ذلك الأدب، وعليه قال ابن جبير الأندلسي: (إن وقت المقام بالكوفة، ضاق عن ذلك، لأنا لم نبت فيها سوى ليلة يوم السبت. وفي غدائه رحلنا، ونزلنا قريب الظهر على نهر منسرب من الفرات، والفرات من الكوفة على مقدار نصف فرسخ، مما يلي الجانب الشرقي. والجانب الشرقي كله حدائق نخيل ملتفتة، يتصل سوادها، ويمتد امتداد البصر).[٤٥] وهنا ندرك أن الأوصاف التي ساقها ابن جبير، كانت تلبي حاجة ذلك الوقت، واستثمر تلك المدة الزمنية، ومن ثم فقد استوقفه نهر الفرات، الذي كان موطنا لراحته، بحسب الحال البديعة التي كان عليه. وقريب من مسجد الكوفة المعظم، كان للزائر لتلك البقة الشريفة، أن يرمق أطلال خربة لقصر الكوفة، التي أصابها فعل الإنسان، ما يحاول

بحسب فكره، أن يدفع الضرر والفساد، وهو الشأن الذي قام به عبد الملك بن مروان، والحقيقة إنما وقع منه ذلك؛ للهروب من مصير تكرر في ذلك الحيز المكاني، وعلى وفق ذلك ندرك، أن ذلك الفعل البشري، كان يؤشر التخلي عن التعامل مع الموروث المادي، ولم يكن بوسعه أن يجرب ممارسته. وهكذا فقد كانت تلك الآثار، تمثل بحد ذاتها درسا تاريخيا، يندر تكراره في بقعة أخرى، التي وصفت الآثار المعتبر بها (سواء ما كانت عليه، وما طرأ من تغيرات أو زوال أو تجديدات أو إصلاحات، وكانت هذه الأوصاف على جانب كبير من الأهمية في عالم الآثار والفنون).[٤٦] لقد كان ذلك القصر، يضع أمام المتلقي، نوع من التفكير الشخصي، الذي يسعى إلى التعامل بطريقة الحلول السريعة، التي تقوم على معيار الخشية من تكرار المصير، ومن ثم تدرك آثار تلك الثقافة في آثار شاخصة، وهو ما جعل المتلقي في حال من الانبهار، على الرغم من أن ذلك، قد أدى إلى ضياع الخصوصية الحضارية، التي حوصرت بالفعل الشخصي، الذي يخالف التجربة الإنسانية؛ نتيجة محدودية آثاره، وكان لمثل هذا الأنموذج أن يكون (مصدر لوصف الثقافات الإنسانية، ولرصد بعض جوانب حياة الناس اليومية في مجتمع معين خلال فترة الزيارة).[٤٧] كذلك قدم ابن بطوطة عرضا لقصر الكوفة، كان يمثل صمتا للحياة، ونكوصا على ذلك التاريخ، وهو ما بينته مفردات ابن بطوطة الذي ذكره وحده فحسب، مشفوعا بذكر نهر الفرات. قال: (أما قصر الإمارة بالكوفة، الذي بناه سعد بن أبي وقاص، رضي الله عنه، فلم يبق إلا أساسه. والفرات من الكوفة على مسافة نصف فرسخ، في الجانب الشرقي منها، وهو منتظم بحدائق النخل الملتفة، المتصل بعضها ببعض).[٤٨] ولم يكن وصف نهر الفرات هنا، إلا من باب الإحاطة بجغرافية تلك المدينة، التي يتحتم أن تكون مفردة من مفردات رحلاته، أسوةً بغيره مما يذكره الرحالة عند زيارتهم بلدا أجنبيا، ويبدو من وصف الفرات، أنه ينبض بالحياة، بخلاف قصر الكوفة المغتال تاريخيا، ويبدو أن طريقة تحلّق النخيل حول الفرات، بما يساير نبض المجتمع بالحياة؛ نتيجة ما يهبه الماء والنبات. قد جذبت انظار ابن بطوطة لأرض السواد. والذي يفهم من هذه الثنائية (الموت/ الحياة)، كان أهم ما ينبغي التأكيد عليه؛ لأنها تعبر عن مناخات المجتمع، وقد ذكر ذلك الشريف الإدريسي، قائلا: (بين بغداد والكوفة

سواد متصل وأعمال غير متميزة، تخترق إليها أنهار الفرات).[٤٩] لقد عرف عن الإنسان المغربي، ومنهم ابن بطوطة المغربي، أن جغرافية المغرب الإسلامي، كانت تحاصر طموحه الشخصين وطبيعته التواقة للترحال، وأدرك بنحو واضح (أن عليه أن يسعى لرؤية العالم الآخر، عالم المشرق الذي كان مصدر سعادته).[٥٠] ومن هنا فقد عرض لنا ابن بطوطة، موضع قبر أشقى الأشقياء ابن ملجم، كما للتابعي الجليل المختار بن أبي عبيد، رضوان الله عليه؛ ولعل ذلك متابعة منه لتاريخ تلك المدينة، قال: (رأيت بغربي جبانة الكوفة، موضعا مسودا شديد لسواد في بسيط أبيض، فأخبرت أنه قبر الشقي ابن ملجم، وأن أهل الكوفة يأتون في كل سنة بالحطب الكثير، فيوقدون النار على موضع قبره سبعة أيام، وعلى قرب منه قبة، أخبرت أنها على قبر المختار بن أبي عبيد).[٥١] واضح أنه يحرز ما لتلك المدينة من معالم، ومنها وصفه للطقوس التي تقام على قبر اللعين ابن ملجم، وهو ما لم يدركه سلفه ابن جبير الأندلسي، كذلك لم يدركه ابناء هذا العصر، وهو ما يؤكد اختلاف الموضعين، لاختلاف صاحبيهما، وهو عندما يذكر أفعال الكوفيين، إنما يرصف أفعال جماعة إنسانية، تعانق ثقافة دينية، دفعتها إلى إشهار مصير ذلك شقي المريد، بعمل يفهم منها طبيعة تفكيرها، وبذلك يقدم ابن بطوطة تلك الصورة، نقلا أمينا من دون تدخل، أو إبداء رأي في تلك الطقوس.

▪ نتائج البحث:

بعد الانتهاء من تدوين مفردات البحث هذا، الذي ركن إلى أدب الرحلات مرجعية، وتعلقت اهدابه برحلتي ابن جبير الأندلسي وابن بطوطة المغربي، اللتان جرت أحداثهما بين أواسط القرن السادس، حتى الثلث الأول من القرن الثامن الهجريين، اللذان تفردا من دون رحالة الغرب الإسلامي، بوصف مدينة الكوفة الشريفة، ودونا الكثير من المعلومات، التي تخص تلك المدينة، فإن للباحث أن يرصف أهم النتائج التي توصل إلها في يسير دراسته هذه، التي وازنت بين الرحلتين، وبين ما تحمله ذات الغرب الأسلامي تجاه الكوفة، ومن أهم تلك النتائج:

ـ ظهرت صورة الكوفة في وضع مزري إلى حد ما؛ نتيجة ما احتملته من إهمال وتعاقب الأحداث، ولاسيما الأثر السلبي للقبيلة العربية (خفاجة) حينذاك، بما يمثل مرحلة

ضنك فكري واجتماعي واقتصادي، حاصر ذلك المجتمع، ولم تترك كل العوامل مجتمعة، فرصة للكوفة للنهوض حينها.

ـ أما عن مسجد الكوفة المسجد الأعظم في الإسلام، الذي بني بعد المسجد النبوي الشريف، بزمن قليل، فقد حافظ على آثاره وعمرانه، وقد أظهرت الأوصاف التي ساقها الرحالتان، تلك المنزلة الروحية، التي حفظت للمسجد الشريف كينونته، ولم يتخالف الرحالتان في وصفهما كثيرا.

ـ كانت لآثار الأنبياء نوح وإدريس وإبراهيم عليهم السلام، أن تشكل إحدى أهم معالم مسجد الكوفة الأعظم، مع ملاحظة السبق الزمني لتلك الآثار، ولكنها شكلت مهدا روحيا، تأصلت عليه الكينونة الكوفية هناك، على الرغم مما ورد من تهوين غير مدروس في نسبتها للنبوة.

ـ كذلك أدركت مفردات الرحلتين، معالم علوية جليلة بالمسجد، وهي محراب أمير المؤمني علي عليه السلام، وبيته الشريف، وقد بان من الأوصاف المساقة هناك، أن لها منزلة كبيرة في الوجدان المسلم عامة، بحسب صيغة الدعاء على قاتله، كذلك تحديده لمكان المحراب الحقيقي.

ـ وفيما يتعلق بضريح الشهيد مسلم بن عقيل رضوان الله عليه، وبنات الائمة، والمختار بن أبي عبيد، فقد أولى الرحالتان ذكرهما، ولكن بنحو يتضائل بحسب منزلة أصحابها، وإن جاءت مقتضبة بنحو عام، واللافت ذكره هو تحديد قبر ابن ملجم اللعين، وطقس الإحراق عليه.

ـ كان نهر الفرات، يشكل معلما نابضا بالحياة في الكوفة، على خلاف قصرها الذي كان عنوان اليباب، وقد ورد مفردات واصفة في ذلك، بما أظهر عينة من بلاد العراق وقتذاك، و بما يظهر الهوية الحضارية للكوفة، التي تعاشقت فيها هاتان الثنائيتان الرئيستان (الخراب والعمار)، التي شكلتها دهور وأحداث كبرى.

ينظر البحث في صورة مدينة الكوفة، بحسب منظور أدب الرحلات، الذي يعد من الحقول الأدبية، الذي نهض في العصور الأسلامية المتأخرة، ولاسيما ببلاد المغرب والأندلس، و مثل معينا لاينضب للباحثين في العلوم الإنسانية عامة؛ لما احتوته نصوصه

من طريفومثير علاوة على ما ترتسم به رؤى الرحالة المغاربة والأندلسيين، من معطيات جديدة، تشملميادين جغرافيةوثقافية .

وقد نهضت رحلتا ابن جبير الأندلسي (٥٧٨__ ٥٨١ هـ)، وخلفه ابن بطوطة المغربي (٧٢٥_ ٧٤٩هـ)، بنصيب مهم في وصف لمدينة الكوفة، بخلاف الرحلات الأخرى التي لم تذكر هذه المدينة، ومن هنا مثلت مادة أساسية للباحثين، تقدم بدروها نصوصا رحلية،أثارت منذ القدم وإلى عصرنا اهتماما الكثيرين؛ لما تضمنتاه من أسلوب متميز في أدب الرحلات عامة، وما تمنحه من وصف واف،مثل وثيقةمدونةًتصفتلك المدينة العريقة، ومجتمعها، ولاسيما مسجدها العتيق.

وهكذا... فقد خاضت مفردات هذا البحث في تلك الفجاج الادبية، فشرعت بتقديم مفهوم أدب الرحلات، الذي عانى النسيان من قبل الباحثين المعاصرين، إلى الحد الذي حسب على الأدب الجغرافي سهوا وغفلة، بعدها عرضت إلى الموازنة بين وصف الرحالتين الكبيرين، بما اشتملت عليه مفرداتهما من وصف المدينة، ومسجدها، وساكنتها، وقصصا، وما يمكن متابعته من تصوير معبرعنمشاهدات كل منهما، وأدواتهم الأدبية التي عالجت ما شاهداه، وتقديمهم للأحداث التي عاشوه تجربة حقيقية معيشة؛بما تفترضه من تحري صدق المعلومات، وأهمية الوصف الذي يرتقي بمدوناتهم إلى مصاف الأجناس الأخرى من قصة وسيرة شعبية، التي احتوت نسبة عالية من الواقعية، بما يعني أن أدب الرحلة في جوهره، هو صورة من الواقع المحسوس، الذي يزدان برؤى المنشئ وتصوراته، بحسب تجربته المحسوسة في المكان الذي ارتحل إليه. ومنه مدينة الكوفة محل دراستنا، التي توزعت مباحثها، بحسب المشاهد الموصوفة، التي تمت موازنتها أدبيا، عبر معالجة تهدف إلى بيان طبيعة الأسلوب، والنمو العضويللمكان الموصوف، وما يعني ذلك من تعبيرشخصي، يتوخى وقائع شهدها الرحالتان، أو سمعا بها،وأماكن زارها في مسافة زمنية، تقارب القرن والنصف، هي الفاصل بين زيارتهما المهمة.

## الهوامش:

[1] بناء الرواية: سيزا قاسم أحمد، الهياة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤: ٧٦.

[2] الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري: نصر عبد الرزاق الموافي، مطابع الوفاء، المنصورة، ١٩٩٥: ٤٠.

[3] في نظرية الأدب من قضايا الشعر والنثر في النقد العربي القديم: عثمان موافي: دار المعرفة الجامعية، الجزائر، ٢٠٠٢: ١٣٣/١.

[4] تحليل الخطاب الروائي: سعيد يقطين: المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٧: ١٣.

[5] التراث والتجديد في شعر السياب دراسة تحليلية جمالية: عثمان حشلاف، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٦: ١٦.

[6] الرحلة العياشية: عبد الله بن محمد العياشي، حققها وقدم لها: د. سعيد الفاضلي، ود. سليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع، ط١، أبو ظبي، ٢٠٠٦: ١١.

[7] الخطاب النثري في كتاب المثل السائر لابن الأثير: باية بن مساهل، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة محمد بوضياف، الجزائر، ٢٠٠٩: ٩٥.

[8] الرحلة العياشية: ١١.

[9] هو بنيامين بن يونة التطيلي النباري، أشهر الرحالة اليهود، غادر سرقسطة في سنة ٥٦١ هـ. أسوة بقومه الذين هجروا الأندلس في القرنين (٦و٧ هـ)؛ نتيجة الضغوط الأسبانية. وطاف الكثير من البلدان التي احتوت الشتات اليهودي، وسجل أماكن الوجود اليهودي فيها، ومفردات حياتهم المحلية، عاد إلى الأندلس في سنة ٥٦٩هـ، وتوفي بها في سنة ٥٨٦ هـ. ينظر: يهود الأندلس والمغرب، حاييم الزعفراني، ترجمة: أحمد شحلان، مطبعة النجاح الجديدة، ط١، الدار البيضاء، ٢٠٠٠: ٦٧، ويهود الأندلس في ظل الحكم الإسلامي ( ٩٢ _٨٩٧ هـ): د. هشام فوزي عبد العزيز، مجلة دراسات أندلسية، العدد ١٥، المطبعة المغاربية للطبع والنشر والإشهار، تونس، ١٩٩٦: ١٠١.

[10] رحلة بنيامين التطيلي: ٣١٣_٣١٤. ذكر محقق الرحلة في هامش الصفحة، قائلا: (يروى أن بعض أثرياء اليهود من بغداد، ومنهم آل نطيرة، كانوا يبعثون مقدارا من المال، يوزع على العلويين وبني هاشم).

[11] هو محمد بن أحمد بن جبير: من أهل غرناطة، كان من عمال السلطان، واكتسب مالا كثيرا . ثم نزع عن ذلك كله، وتصدق بجميع ماله، وزهد في الدنيا، كان من أهل العلم والفضل، والدين والأدب البارع والشعر الفائق، سكن مالقة وأقام بها مدة، ورحل إلى المشرق إلى مات رحمه الله. ينظر: أعلام

مالقة: أبو بكر بن خميس، تقديم وتخريج وتعليق، د. عبد الله المرابط الترغي، دار الغرب الإسلامي، ط١، بيروت، ١٩٩٩ . ١٣٨.

[١٢] المصدر نفسه: ١٣٨.

[١٣] الرحلة العياشية: ١٢.

[١٤] هو محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي المغربي: ولد بطنجة في سنة ٧٠٣هـ، وكان عالما فقيها ناسكا بارا، ولما بلغ ٢٢ سنة، خرج عن مدينته بقصد الحج، فأخذ يتقلب في الأمصار ، توفي في سنة ٧٧٩ هـ. ينظر: الأعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام: العباس بن إبراهيم السملالي، المطبعة الملكية، ط٢، الرباط، ١٩٩٣: ٢/٥.

[١٥] تاريخ الأدب الجغرافي: اغناطيوس يوليانوفيتش: ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، دار الغرب الإسلامي، ط٢، بيروت، ١٩٨٧: ٤٥٢.

[١٦] رحلة ابن بطوطة: أكاديمية المملكة المغربية، ط١، الرباط، ١٩٩٧: ١/ ١٤.

[١٧] الخطاب النثري في كتاب المثل السائر لابن الأثير: ١٠١.

[١٨] رحلة ابن جبير: محمد بن احمد الكناني الأندلسي: دار صادر بيروت، د ت: ١٨٧.

[١٩] رحلة ابن بطوطة: ٢/ ٥٥.

[٢٠] الرحلة العياشية: ١١.

[٢١] رحلة ابن جبير: ١٨٨.

[٢٢] في النقد الأدبي: شوقي ضيف، دار المعارف، ط٧، القاهرة، ١٩٨٨: ١٩١.

[٢٣] رحلة ابن بطوطة: ٢/ ٥٥.

[٢٤] مدينة قسنطينة في أدب الرحلات: عبد الحافظ بورايو، رسالة ماجستير في كلية الآداب واللغات، جامعة منتوري، قسنطينة، ٢٠٠٧: ١٥.

[٢٥] رحلة ابن جبير: ١٨٨.

[٢٦] رحلة ابن جبير: ١٨٨.

[٢٧] الاغتراب سيرة ومصطلح : محمود غريب، دار المعارف، ط٤، القاهرة، ١٩٩٣: ٤٤.

[٢٨] رحلة ابن بطوطة: ٢/ ٥٦.

[٢٩] المصدر نفسه: ٢/ ٥٥. وقد بين السيد حسين البراقي، قائلا: (إن ابن بطوطة شاهد آثارا كثيرة، وفي زماننا هذا ليس لها عين ولا أثر، ويظهر من كلامه في محراب أمير المؤمنين أنه المحراب الموجود الآن، الذي بجنب المنبر المبني بالجص والحجارة). تاريخ الكوفة:حرره: السيد محمد صادق بحر العلوم، دار الأضواء، ط٤، بيروت، ١٩٨٧: ٣٨.

[٣٠] تاريخ الكوفة: السيد حسين البراقي، حرره: السيد محمد صادق بحر العلوم، دار الأضواء، ط٤، بيروت، ١٩٨٧ ٣٨.

[٣١] التفسير النفسي للأدب: د. عز الدين إسماعيل، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣: ٦٤.

[٣٢] قراءات متعددة للشخصية دراسة تطبيقية على شخصيات نجيب محفوظ: روزو ماري شاهين، دار الهلال، ط١، القاهرة، ١٩٩٥: ٤١.

[٣٣] رحلة ابن جبير: ١٨٨.

[٣٤] المصدر نفسه: ١٨٨.

[٣٥] نحن والآخر : محمد راتب الحلاق، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٧: ٥٦.

[٣٦] رحلة ابن بطوطة: ٢/ ٥٥.

[٣٧] المصدر نفسه: ٢/ ٥٦.

[٣٨] بنية الشكل الروائي: حسن بحراوي، المركز الثقافي العربي، ط٢، بيروت، ٢٠٠٩: ٣٣.

[٣٩] الرواية والعنف دراسة سوسيو نصية في الرواية الجزائرية المعاصرة: الشريف حبيلة،، عالم الكتب، ط١، عمان، ٢٠١٠: ٢٢.

[٤٠] الأدب المقارن: محمد غنيمي هلال، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠١: ٣٣١.

[٤١] رحلة ابن جبير: ١٨٨.

[٤٢] سيميولوجية النص السردي مقاربة سيميائية لرواية الفراشات وغيلان: ذويبي الزوبير، رابطة أهل القلم، ط١، سطيف، ٢٠٠٦: ٢٢.

[٤٣] رحلة ابن بطوطة: ٢/ ٥٦.

[٤٤] مشوار كتب الرحلة قديما وحديثا: سيد حامد النساج: كتب الرحلة قديما وحديثا: سيد حامد النساج، مكتب غريب الفجالة، القاهرة، د ت: ٦.

[٤٥] رحلة ابن جبير: ١٨٩.

[٤٦] أدب الرحلة الأندلسية والمغربة حتى نهاية القرن التاسع الهجري : نوال عبد الرحمن الشوابكة، دار المأمون للنشر والتوزيع، ط١، عمان، ٢٠٠٨: ١٥٩.

[٤٧] أدب الرحلات: د. حسين محمد فهيم: ١٥.

[٤٨] رحلة ابن بطوطة: ٢/ ٥٦.

[٤٩] نزهة المشتاق في اختراق الآفاق: مكتبة الثقافة الدينية، ط١، القاهرة ٢٠٠٢: ٢/ ٦٦٨.

[٥٠] رحلة الرحلات مكة المكرمة في مائة رحلة مغربية: د. عبد الهادي التازي، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ط١، مكة المكرمة، ٢٠٠٦: ٢٠.

[٥١] رحلة ابن بطوطة: ٢/ ٥٦.

▪ مصادر البحث ومراجعه:

ـ أدب الرحلات: د. حسين محمد فهيم: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ط١، الكويت، ١٩٨٩.

ـ أدب الرحلة الأندلسية والمغربة حتى نهاية القرن التاسع الهجري: نوال عبد الرحمن الشوابكة، دار المأمون للنشر والتوزيع، ط١، عمان، ٢٠٠٨.

ـ الأدب المقارن: محمد غنيمي هلال، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة. ٢٠٠٠.

ـ الأعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام: العباس بن إبراهيم السملالي، المطبعة الملكية، ط٢، الرباط، ١٩٩٣.

ـ أعلام مالقة: أبو عبد الله بن عسكر وأبو بكر بن خميس، تقديم وتخريج وتعليق، د. عبد الله المرابط الترغي، دار الغرب الإسلامي، ط١، بيروت، ١٩٩٩.

ـ الاغتراب سيرة ومصطلح : محمود غريب، دار المعارف، ط٤، القاهرة، ١٩٩٣.

ـ بناء الرواية: سيزا قاسم أحمد، الهياة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤.

ـ بنية الشكل الروائي: حسن بحراوي، المركز الثقافي العربي، ط٢، بيروت، ٢٠٠٩.

ـ تاريخ الأدب الجغرافي: أغناطيوس يوليانوفيتش: ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، دار الغرب الإسلامي، ط٢، بيروت، ١٩٨٧.

ـ تاريخ الكوفة: السيد حسين البراقي، حرره: السيد محمد صادق بحر العلوم، دار الأضواء، ط٤، بيروت، ١٩٨٧.

ـ تحليل الخطاب الروائي: سعيد يقطين: المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٧.

ـ التراث والتجديد في شعر السياب دراسة تحليلية جمالية: عثمان حشلاف، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٦.

ـ التفسير النفسي للأدب: د. عز الدين إسماعيل، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣.

ـ رحلة ابن بطوطة: أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي، أكاديمية المملكة المغربية، ط١، الرباط، ١٩٩٧.

ـ رحلة ابن جبير: محمد بن احمد الكناني الأندلسي: دار صادر بيروت، د ت.
ـ رحلة بنيامين التطيلي: تقديم د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ، المجمع الثقافي، ط١، أبو ظبي، ٢٠٠٢.
ـ رحلة الرحلات مكة المكرمة في مائة رحلة مغربية: د. عبد الهادي التازي، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ط١، مكة المكرمة، ٢٠٠٦.
ـ الرحلة العياشية: عبد الله بن محمد العياشي، حققها وقدم لها: د. سعيد الفاضلي، ود. سليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع، ط١، أبو ظبي، ٢٠٠٦.
ـ الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري: نصر عبد الرزاق الموافي، مطابع الوفاء، المنصورة، ١٩٩٥.
ـ الرواية والعنف دراسة سوسيو نصية في الرواية الجزائرية المعاصرة: الشريف حبيلة، عالم الكتب، ط١، عمان، ٢٠١٠.
ـ سيميولوجية النص السردي مقاربة سيميائية لرواية الفراشات وغيلان: ذويبي الزوبير، رابطة أهل القلم، ط١، سطيف، ٢٠٠٦.
ـ في نظرية الأدب من قضايا الشعر والنثر في النقد العربي القديم: عثمان موافي: دار المعرفة الجامعية، الجزائر، ٢٠٠٢.
ـ في النقد الأدبي: شوقي ضيف، دار المعارف، ط٧، القاهرة، ١٩٨٨.
ـ قراءات متعددة للشخصية دراسة تطبيقية على شخصيات نجيب محفوظ: روزو ماري شاهين، دار الهلال، ط١، القاهرة، ١٩٩٥.
ـ مشوار كتب الرحلة قديما وحديثا: سيد حامد النساج، مكتب غريب الفجالة، القاهرة، د ت.
ـ نحن والآخر: محمد راتب الحلاق، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٧.
ـ نزهة المشتاق في اختراق الآفاق: مكتبة الثقافة الدينية، ط١، القاهرة ٢٠٠٢.
ـ يهود الأندلس والمغرب، حاييم الزعفراني، ترجمة: أحمد شحلان، مطبعة النجاح الجديدة، ط١، الدار البيضاء، ٢٠٠٠.

❖الرسائل والبحوث الاكاديمية:

ـ الخطاب النثري في كتاب المثل السائر لابن الأثير: باية بن مساهل، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة محمد بوضياف، الجزائر، ٢٠٠٩.

ـ مدينة قسنطينة في أدب الرحلات: عبد الحافظ بورايو، رسالة ماجستير في كلية الىداب واللغات، جامعة منتوري، قسنطينة، ٢٠٠٧.

ـ يهود الأندلس في ظل الحكم الإسلامي ( ٩٢ _٨٩٧ هـ): د. هشام فوزي عبد العزيز، مجلة دراسات أندلسية، العدد ١٥، المطبعة المغاربية للطبع والنشر والإشهار، تونس، ١٩٩٦.